شخصية الأمير عبد القادر في كتاباته، رسالته ذكرى العاقل وتنبيه الغافل نموذجا

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

The character of Prince Abd -El kader, in his writings, his treatise, Remembrance of the Wise and Warning of the Heedless is an example.

د. عايدة حباطي

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية، قسنطينة

habbati.aida@gmail.com

habbati.aida@univ-emir.dz

الملخص:

الأمير عبد القادر من الشخصيات الجزائرية الحديثة، التي كان لها حضور قوي تجاوز الأفاق شرقا وغربان فكان شخصية فريدة في عصره جمع بين الفروسية والشجاعة والحنكة السياسية في تأسيس دولة داخل كيان محتل، وبين قرضه للشعر وخوضه في قضايا عصره الفكرية، فكان عسكريا وأدبيا ومفكرا، عكست كتاباته ورسائله خلفية مرجعيته الفكرية ونظرته للأخر ، كان أبزها رسالته ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. الذي يعتبر من المصادر الهامة في فك شفرات نظرته للعقل والتقليد والتجديد وأفاق نظرته للأخر.

انطلاقا مما سبق جاءت هذه المداخلة الموسومة: **شخصية الأمير عبد القادر في كتاباته، رسالته ذكرى العاقل وتنبيه الغافل نموذجا.**

الكلمات المفتاحية:

الأمير عبد القادر– فكر – ذكرى العاقل وتنبيه الغافل– العقل – التقليد

Abstract :

Prince Abdelkader is one of the modern Algerian figures, who had a strong presence that transcended the horizons, east and west. He was a unique figure in his time who combined chivalry, courage, and political

acumen in establishing a state within an occupied entity, and between his devotion to poetry and his involvement in the intellectual issues of his time. He was a military man, a literary man, and a thinker, which reflected His writings and letters were the background to his intellectual reference and his view of the other. The most prominent of them was his letter “Remembrance of the Wise and Warning of the Heedless.” Which is considered one of the important sources in decoding his view of reason, tradition, innovation, and the horizons of his view of the other. Based on the above, this tagged intervention came: The character of Prince Abd -El kader, in his writings, his treatise, Remembrance of the Wise and Warning of the Heedless is an example Keywords

Prince Abdul Qadir - thought - remembrance of the wise and alerting the heedless - reason – imitation.

مقدمة:

ارتبطت الفروسية العربية منذ زمن بعيد بالسيف والقلم، بحثا عن السيادة والرياسة، وهي الثنائية التي نوه إليها عبد الرحمان بن خلدون في الفصل الخامس والثلاثون من مقدمته في قوله: " **اعلم أن السيف والقلم كلاهما آله لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم، أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط**...."[1] فكانت مظهرا عاما عند العرب تعبيرا عن فروسيتهم وتمسكهم بالحرية، استمرت حتى القرون الأخيرة، ويعد عند الأمير عبد القادر من ألمعها ، حيث سخر سيفه على رقاب المعتدي الكافر الذي انتهك الأرض والعرض، واستطاع طيلة 17 سنة أن يبني لنفسه دولة، وأعطى للجزائريين دلالات جديدة عن معنى المواطنة والانتماء إلى العروبة والإسلام، فبنى دولة دحرت أنف العدو، وأجبره على الجلوس إلى طاولة الحوار والتفاوض. كما جعل من مداد قلمه آلة للتعرف بفكره الإسلامي والإنسانية وانفتاحه على الغير. وهو ما نحاول مناقشته في هذه المداخلة في المحاور الآتي ذكرها:

-الأمير عبد القادر المفكر؛

- ظروف بلورة فكرة كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل؛

- قراءة في الكتاب؛

أولا /الأمير عبد القادر المفكر:

تعد شخصية الأمير عبد القادر من الشخصيات البطولية التي لطالما ارتبط اسمها في نشأته وشبابه بالعروبة والإسلام، عاش غيورا مدافعا عن عرضه وأرضه وإسلامه، ووصف في أكثر من موضع بالعنف في الدفاع عما يعتقد أنه الحق[2] شديد التمسك بدينه. رفع سيفه ولم يرجعه لغمده طيلة ما يقارب سبعة عشر سنة سعيا وراء حقه وحق شعبه في الحرية والكرامة، وبذل في ذلك المال والدم ما لم تتمكن دول قوية من ثبات عليه أمام قوة العدو. وكان يتمثل في ذلك بالصحابة والخلفاء وأبطال العرب والإسلام في كل أعماله.له حضور قوي في مواجهة الفرنسيين، اللذين كنوا له الاحترام والتقدير،في دولته ومعاهداته وعلاقاتها الدبلوماسية، رغم فشل مقاومته. نال شهرة عالمية في وقفه الحرب الطائفية في الشام (1860).استطاع بفضل مكانته أن يقيم علاقات أخوية وإنسانية، تواصل فيها مع

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر، ص257.

[2] الأمير عبد القادر، **ديوان الأمير عبد القادر**، شرح وتح.محمود حقي، دار اليقظة، ص6.

شخصيات وأعلام من المشرق والمغرب العربيين، وأخرى ربطته ببعض الفرنسيين والانجليز والأمريكان. إلا أن شخصيته كرجل فكر متبحر في علوم الدنيا والدين، وعلم من أعلام النهضة العربية، لم تنل حظها من البحث والدراسة!!رغم أن كتاباته أثبت حضوره الفكري، على قدر من المساواة مع حضوره العسكري السياسي.

تعتبر الحياة الفكرية للأمير عبد القادر ثمرة ونتاج لمجموعة من القراءات والأفكار التي تدرج في تلقيها منذ نعومة أظافره، فكانت الطبيعة الهادئة في منطقته قد زرعت فيه ملكة التأمل، والتفكير[1]. وهناك أيضا تلقى مبادئ العلوم في مدرسة والده، كما كان له جولاته التي زار فيها بقاع العالم الإسلامي ونهل من مراكزها وشيوخها كالزيتونة وفاس والحجاز... وحصل فيها على إجازات بما في ذلك إجازته على الطريقة القادرية[2]، وقد ألهمه ذلك حب العلم والقراءة وكانت مكتبته[3] التي عبث فيها الفرنسيون خير دليل على ذلك. والأكيد أيضا أنه تأثر وتفاعل مع العقل العربي، ومن علماء الغرب فكان صورة ونموذجا لفكر المرحلة التي زاوج فيها بين الفكرين العربي في علومه العقلية والنقلية، وما عرفه الغرب حينها من العلوم التجريبية.

لم تمهل الأجواء العامة التي كانت تعيشها الجزائر الأمير عبد القادر الذي سخر نفسه وسيفه لمواجه الدخيل الفرنسي على أرضه وأرض أجداده، للتفرغ للكتابة وتأليف، لذلك فإن أغلب كتاباته جاءت بعد أن أرجع سيف إلى غمده ورفع بذله قلمه دفاعا عن العروبة والإسلام. فمن أولى كتابته المبكرة كان **وشاح الكتائب وزينة الجند المحمدي الغالب** (1833) [4] الذي عكس فكره وحنكته العسكرية؛ لخص فيه الأمير القوانين والتنظيمات العسكرية الذي تخص جيشه. بينما كتاباته الفكرية تزامنت مع خروجه من الجزائر، فرغم قساوة المرحلة التي دامت 8سنوات قبل استقراره الدائم في دمشق(1955) قضاها مسجونا ومبعدا عن الديار تصله عنها عن أنصاره ما يؤلم القلب، وهي مرحلة من لا استقرار عند عامة الناس واضطراب في النفسية التي لا تسمح بالكتابة، إلا أنها بالنسبة للأمير كانت ملجأ فر إليه. لكنه لم يكن بالسجين العادي فقد حظي برعاية خاصة في هذا الحصن من طرف الحكومة الفرنسية ومسؤوليها وجنرالاتها ورجال الكنيسة وسيدات المجتمع وخلق هناك صداقات جددت عند الأمير نظرته للفرنسيين ، وهو ما نوه إليه الأمير: "وجميع ما قصدناه وظنناه في الفرنصيص من الخير والإحسان فعلوه وزادوا فرق ما ظنناه فنحن

---

[1] الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره**، تر. أبو القاسم سعد الله، دار الوعي، الجزائر، 42-43.

[2] الأمير عبد القادر، **ديوان الأمير عبد القادر**، مصدر سابق، ص16

[3] كانت مكتبة الأمير قد كلفته جهدا كبيرا في جمعها من الأفاق ورحلاته، كما كان يعطي جنوده مكافأت مقابل جمع المخطوطات وكتب التراب، وبالمقابل يعاقب كلمن يتلفها، فبلغ حجمها ما يزيد عن 5000 مخطوط، أتلفها الفرنسيون الذين هجموا عليه بألبسة تتطابق مع ألبسة جنده في معركة عين النطاقين (1843)، وحزن عليها الأمير حزنا شديدا، هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، تر. أبو القاسم سعد الله، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص139

[4] محمد بن عبد القادر: **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ج.1، المطبعة التجارية عزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص.120-136. الأميرة بديعة، مصدر سابق، ص77.

اليوم ملوك على الحقيقة فقد أنزلونا في منزل سلطانهم في قصر بحار فيه الطرف وبقصر دونه الوصف....مع التعظيم التام من الكبير والصغير والخاص والعام"[1]

كتب الأمير كتابه المقراض الحاد لقطع لسان منقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد[2] (1269هـ-1852م) من سجنه في أمبواز [3] (Amboise) بعد أن كان مسجونا في بو (paul). وهو كتيب في شكل رسالة رد فيه على بعض القساوسة بما في ذلك القس بورقاد (F. Bourgade Abbé) في كتابه أمسيات قرطاجة حورات بين كاهن كاثوليكي ومفتي وقاضي (Soirées de Carthage, ou Dialogues entre un Prêtre Catholique un Muphti et un Cadi.) المؤلف سنة 1947 الذي أثار فيه مسألة الغدر وعدم الوفاء الذي يحييه الإسلام ، وغير قبيح عند المسلمين. وهي الشبهات التي أثارها القساوسة ونقلها له أحد الضباط المشرفين على القصر. الأمر الذي دفع الأمير إلى كتابة رسالته المقراض التي أرسل بها إلى علماء باريس وللقساوسة دفاعا عن الإسلام ورفع الشبوهات عنه. بالحجج والأدلة العقيلة والوجودية التي تؤكد وجود الله، والدستور الإلاهي، ومواضيع الرئيسية عن الفقه الإسلامي والأخلاقيات الإسلامية كالوفاء والعدل ... [4]. كما ناقش فيه الجهاد في الإسلام ليس هدفه السيطرة والقتل

ترجمت هذه الرسالة إلى الفرنسية، مما جعلها موضوع ناقش من علماء الفكر وخلقت أجواء علمية أثارت فيها حركة فكرية جعلت جمعية العلماء في باريس تضع اسم عبد القادر من بين أسماء علماء العالم و عظمائه في ديوان الأمم .

جاء الكتاب في 254 صفحة متوسطة الحجم، قسمه الأمير إلى مقدمة و ثلاثة أبواب تضمنت عناوين فرعية، كتعريف العقل، وحاجة كل فرد للآخر،و نعم الله على عباده .وإثبات الألوهية والطريق إليها، والروح، كما أثار النبوة والرسالة، و ضرورة إثباتها عن طريق العقل .وما شرعه الإسلام من الوفاء و الغدر.

وقد اعتمد على مصادر هامه فإلى جانب الاستشهاد بالآيات القرآنية، وكتب الغزالي، وإمام الحرمين وعلي فخر الدين الرازي، وصدر الدين الشيرازي عضد الدين التفتزاني....

---

[1] عبد الجليل التميمي،" الأمير عبد القادر في دمشق (1855-1860)، **المجلة التاريخية المغربية**، ع 15-16، تونس، 1979.ص6

[2] تم ترجمة الكتاب إلى الفرنسية في باريس في نفس العام الذي تم طبعه فيها 1852، وقد أعادت دار الحياة في بيروت بإعادة طبعه، سنة 1966. للمزيد ينظر، الأميرة بديعة الحسني الجزائري، المرجع السابق، ص78.

[3] وهو حصن وقلعة عالية الأسوار كانت ملكا لأحد ملوك فرنسا على ضفاف نهر اللوار.

[4] الأميرة بديعة الحسني الجزائري، المرجع السابق، ص.149.

ويعتبر هذا الكتاب خلاصة لتجارب مرت به شخصيا؛ بسبب غدر الفرنسيين نفسهم الذين لم يفوا بوعودهم عند الاستسلام، كما بدى فيها مدافعا عن الإسلام وذود عن حياضه أمام ضربات أعدائه، ولم يتعال بلين مع طاعنين فيه وهو سجين بينهم ورد في عنوان قوي حاد اللهجة، وبأسلوب علمي واضح وبسيط دون تملق أوتصنع في اللفظ بشكل مباشر يتماشى مع المرحلة ومخاطبة الأخر.

شارك الأمير عبد القادر في كتابة سيرته الذاتية أيضا في أمبواز التي أشرف عليها صهره وصديقه وخليفته مصطفى بن التهامي، وكانت كتابة هذه المذكرات تلبية لرغبة بعض المترددين عليه من المثقفين والمستشرقين، الذين كانوا يرنون لمعرفة نوازعه و مواقفه إزاء الحرية و الأديان و الإنسان و الفلسفة و نظم الحكم، فحملت سيرته رغم قلة الصفحات التي حررها فيها سياسته الحربية والقضايا العامة.

قسم الأمير مذكراته إلى سبعة فصول، شملت حياته الشخصية ونسبه وامتداده إلى أجداده، والنبوة والرسالة، حياته في الجزائر وتنقلاته، وأحداث مرتبطة بالحرب والسلم، حتى وصله إلى بو الفرنسية.وفصولا أخرى تنوع فيها الطرح عن الأبياء، الكعبة وملوك العرب،وعدد الشهور والسنين، وروابط الأولى بين المسلمين والمسيحيين. [1]

جاءت المذكرات ليس للتعريف بشخص الأمير ونسبه ومعرفة أفكاره، وإنما كانت أيضا وسيلة للضغط على فرنسا التي أخلفتها وعدها وغيرت وجهة إقامته إلى سجون فرنسا (بو وأمبواز). وقد جاءت المذكرات بلغة مغايرة لغته التي كانت في المراسلات ورسائله، فاستعملت فيه العبارات الشعبية الدارجة، وألفاظ فرنسية بحروف عربية (لقير/ الحرب)، (الكراريس/ السيارات) ... [2] .

إلى جانب كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل الذي ستكون لنا مع وقفة خلال هذه المداخلة.

يعد كتاب **المواقف** للأمير عبد القادر حسب الدارسين من أهم ما كتب الأمير جاء استجابة لطلب جلسائه من العلماء الذين التمسوا من الأمير أن يدوِّن لهم ما يلقيه من دروسه في مجالسه فكان خلاصة اعتكاف و انكباب على مدى العقدين الأخيرين من حياته في القراءة و التأمل. وقد وصفه الأمير بقوله: نفثات روحية و إلقاءات سبوحية بعلوم وهبية و أسرار غيبية من وراء طور العقول و ظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب و النظر في الكتاب قيدها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا إذ لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها تركوها في زوايا أماكنها إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كترهم[3]. طبع الكتاب في ثلاثة مجلدات، يبلغ عدد صفحاته مجتمعة 1416

---

[1]الأمير عبد القادر الجزائري، **مذكرات الأمير عبد القادر**، تحق. محمد صغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح الجون، ط3 ،الجزائر، دار الأمة، 1998 .

[2]عبد القادر.بن حرفي، جوانب من شخصية الأمير من خلال مؤلفاته الادبية، **مجلة أمال**، ع.8، جويلية 1970، ص10.

[3]الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج.1 ط1 ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، 1996، ص.1.

صفحة، تضم 372 موقفا. قد طبع لأول مرة 1329 هـ/ 1911 م، طبعات أخرى (1344هـ/1925م)، (1362/ 1966).

عالج الأمير كتابه المواقف الذي كان ذا طبيعة صوفية بأسلوب علمي وموضوعية في الطرح في شكل فرضيات. وقد ترجم الكتاب على يد المستشرق الفرنسي ميشال شود كيفيكس، وكذلك ترجم عام 2000 ، على يد القس ميشال لقار.

وقد تركت كتابات الأمير عبد القادر وأفكاره صدا واسعا، تجاوزت الأفاق، خاصة وأن أخباره البطولية قد سبقته قبل مغادرته الجزائرفستقبل في البلاد العربية استقبال الملوك، واعتبر من مجددي الأمة، وهو ما وصف به أحد أدباء المدينة المنورة لتي قصدها حاجا (1280هـ) مما جاء فيها قوله:

أنــت المجــدد للبريــة ديــنهم بالكتــب والســيف الطريــر البــاتر

لو جئت في العصر الغوابر في الورى لـم تلـق مـنهم غيـر السّـهم الناصـر

وفي العموم أثبتت كتابات الأمير عن حضوره الفكري بالموزاة مع حضورة كبطل وطني وقومي، فكان أنه كان ابن عصره واكب المناقشات الفكرية والسجالات التي كانت ثمرة احتكاك الشرق والغرب، فشارك بأفكاره وآرائه في العقل والأخلاق والتصوف، كما كان أديبا في النثر والشعر وأغراضه. لكن مثله مثل غير من مفكري عصره في القرن 19 الذين وقعوا في شباك الماسونية فقد أجمعت المصادر والمراجع انتساب عدد من مفكرو العرب للماسونية، وهي الحركة التي أثارت الكثير من الضجة والجدل أواخر القرن التاسع عشر، بما في ذلك الأمير عبد القادر والأفغاني ولم يكونا الوحيدين المنتسبين لمحفلها، فقد انتسب لها جل رواد النهضة من المسلمين والمسحيين،بصفتهم أعضاء ومؤسسين، لما كانت تنطوي عليه مبادئها من نزعة تحررية تنويرية ؛فحاربت استبداد الأباطرة وسلطة الباباوات، وسعيها لإبعاد نفوذ الكنيسة الرجعي عن دوائر البحث العلمي، وتحرير عقول العلماء. وكان ما طرحه هذا المحفل من أفكار حول التسامح الديني والحرية والمساواة والإخاء، أن وجد المثقفون والمفكرون العرب فيه السند الفكري لمواجهة المجتمع التقليدي والتحرر منه، كما لم تظهر على هذا المحفل خلال هذه المرحلة الأثر السياسي أو القيادة اليهودية له.

ونحن هنا لسنا في معرض النفي والإثبات[1]، لانتساب الأمير[2] فالأكيد أن منظمة البنائيين الأحرار قد ضمت إليها عددا معتبرا من مفكري العرب، والتي تمكنت من جذبهم إليها ومغالطتهم بشعارتها الإنسانية البارقة. إلا أنها

---

[1]أثار هذا الموضوع الكثير من المؤرخين؛ ومن بينهم أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.5، دار الغرب الإسلامي، ، بيروت، ط1، 1998، ص.544.

[2]جرجي زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذا اليوم (1889)إن "الماسونية دخلت دمشق بمساعي الأمير عبد القادر الجزائري. وأن أول محفل تأسَّس فيها هو محفل سوريا بشرق دمشق"، وبدوره يذكر شاهين مكاريوس أن عبد القادر الجزائري قد تأثر بصحيح مبادئها اغتنم فرصة مروره بالإسكندرية في أثناء عودته من الحجاز سنة 1864، فانتظم في سلكها في 18 حزيران

عكست أجواء فكرية سادت أواخر القرن 19.كما نجد اسم الأمير عبد القادر قد ذكر من بين أعضاء الجمعية السرية العروة الوثقى.[1]التي نشطت خلال القرن التاسع عشر، وهو ما أشار إليه رشيد رضا. وربطته خلال هذه المرحلة روابط فكرية بعدد من المفكرين كالأفغاني والإمام عبده اللذين عاصرهما، وإن لم تشر المصادر التاريخية عن اجتماع الأمير بهذين المفكرين في مصر أو الحج أو الشام[2]، وهي المحطات التي كانوا قد توقفوا فيها زوارا أو مهجرين. كما لم تجمع الأمير مراسلات مع الأفغاني، فلم يأت ذكره ضمن مراسلات الأمير، ولا حتى من المعزين بوفاته (1883). كما لم تطلعنا المصادر أن الأفغاني جاء ذكره في مؤلفات الأمير، ولا أن الأخير أو الجزائر ذكر في مؤلفات الأفغاني؛فقد هاجم في جريدته العروة الوثقى الاستعمار، إلا أنه لم يتعرض للمستعمرات الفرنسية التي كانت الجزائر من أولى البلاد العربية التي أخضعتها لسلطتها، ولا إلى تونس بعدها، كما لم تتعرض الجريدة لفرنسا بالنقد. ومرد ذلك الجريدة استهدفت في مهاجمتها الاستعمار الانجليزي وفضح أساليبه، وهذا الاتجاه يخدم فرنسا بالدرجة الأولى في إطار تنافس الدولتين –فرنسا وبريطانيا–، وتشهير إحداهما بالأخرى، لذلك لم تبد فرنسا امتعاضها من تواجد الرجلين على ترابها، ونشرهما من باريس مقالات العروة الوثقى. فكان صمت الأفغاني عن الضفة الأخرى من العالم العربيفي شقها المغربي، وما يتعرض له على يد الاستعمار الفرنسي،نكاية في الانجليزوبذلك نستخلص أن دعوة الأفغاني الإصلاحية، التي ثار فيها على الاستعمار وجعل منه علة العلل التي أصابت العالم العربي، كانت دعوة إقليمية لم تتجاوز مستعمرات بريطانيا (الهند ومصر).

ثانيا/ – ظروف بلورة فكرة كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

كان تماطل فرنسا في النظر في مطالب الأمير عبد القادر، أن أصبحت مسألة وطنية وقضية دولية تثير الرأي العام الفرنسي، ومبعثا للقلق في الأوساط الأروبية، فتدخلت لأجلها العديد من الشخصيات لإطلاق سراحه، لتأثيرها على شرف فرنسا حسب تصريح الرئيس الفرنسي (13 سبتمبر 1951) [3].

بمحفل الأهرام التابع للشرق الشامي الفرنسوي للمزيد، حسين عمر حمادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، دار الوثائق، دمشق، ص.103-104.

أثار ايضا اكزافيي ياكنو مسألة انضمامه لمحافل منظمة البنائيين الأحرار ونشر بمعية ذلك مراسلاته معها، ينظر:

Xavier Yacono, Abdelkader, franc-maçon, in Humanisme, numéro spécial, Histoire Maçonnique, n57, mi-juin 1966, pp5-37.

وأيضا عبد الجليل تميمي، المرجع السابق، 15.

[1]رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده**، 1.مج، ط.2، دار الفضيلة، القاهرة، 1427هـ/2006م، ج.1، ص.283.

[2] للمزيد ينظر: محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر** ج.2، ص.144.

[3]نصر الدين سعيدوني، **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة ماجد الحكواتي، 2000 .173

كان اطلاق سراح الأمير حدثا بارزا بالنسبة له، وقد اختار وجهة استقراره مدينة بورصة[1] العثمانية (16 جانفي 1853)، التي تتمتع بمعالمها ومناظرها الطبيعية وطيبة أهلها، واستقبله والي المدينة صهر السلطان خليل باشا، وهناك أفردت له دار. كانت مبعث استقراره وغبطته[2]. وقد استقر به المقام بمرفأ صغير يسمى مودانية على بعد 40 كلم عن بورصة. وهناك عكف على تربية أبنائه والدراسة والتعبد، ورغم أن بورصة كانت مدينة إسلامية إلا أنه ظل يشعر فيها بالاغتراب لافتقاده للغة والأعراف واستمرار مراقبة الفرنسيين لهم عن طريق المترجم العسكري بولاد (Boulade) إلى جانب بيئة المدينة الجولوجية غير مستقرة بسبب الزلازل.

وفي هذه المدينة ألف الأمير رسالته ذكرى العاقل وتنبيه الغافل[3] بتاريخ 14 رمضان 1271 هـ/ 1855 م وطبعت الرسالة مرتين أولها سنة 1275 هـ 1858 وطبعة ثانية عام 1249هـ /1877م. كما نشرها أبنه محمد باشا مطلع القرن العشرين مقدمة بترجمة عن حياة أبيه[4].

والكتاب عبارة عن رسالة كتبها الأمير بعد أن بلغه أن علماء باريس كتبوا اسمه في دفتر العلماء جعلوه عضوا مراسلا لمجمع الخالدين[5]. وجاء كتاب الأمير ذكرى العاقل "في سياق مخالف لكتاب وفقهاء عصره، الذين كان

---

[1] تقع بورصة غرب تركيا، يحدها بحر مرمرة من الشمال الشرقي، ومدينة إسطنبول من الجنوب، وهو أحد أهم المدن العثمانية، عاصمتهم وبوابة لأسيا، كما كانت مركزا للتجارة والثقافة والفن في القرن 19.

[2] فكتب الأمير تعبيرا عن اسفه لمغادرته بعد الزلزال الذي ألم بها فأنشد يعبر عن مدى تعلقه بها اعجابه وفرحه بنزولها في بورصة قائلا:

أبى قلبي أن ينسى من برسا — وحبي لها، بين الجوانح قد أرسى
عليّ مُحال بلدةً غيرها، أرى — بها الدبن والدنيا طهورا، ولا نجسا
وجامعها المشهور لم يك مثله — به العلم مغروس، به كم ترى درس
بها أل عثمان، الجهابذة، الأُلى — أشادوا منار الدين وابتذلوا النفسا
مكارم اخلاق وحسن شمائل — ولين طباع، واللطافة لا تنسى
سقى الله غيثا، رحمة وكرامة — أراضٍ بها حلّ الأحبة من برسا

للمزيد ينظر: الأمير عبد القادر ، **ديوان الأمير**، مصدر سابق، ص115-118.

[3] اختلف في تحديد المكان الذي تم في تأليف الرسالة حيث قال عبد الرحمان الجيلالي بأنه كان في دمشق، وقدمها أخرون إلى قبل ما خروجه من فرنسا في أمبواز، لكن الغالب أنها كانت في بورصة.

عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج4، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص62.

بقبق الزهراء، **الأمير عبد القادر في الأسر (1849-1852)**، رسالة ماجستير، جامعة وهران السانية، 2009، ص146.

[4] .محمود حقي، ذكرى العاقل ، مصدر سابق، مقدمة ص8.

[5] .أما بعد، فإنه بلغني: أن علماء باريز – وفَّقهم العليم الحكيم العزيز – كتبوا اسمي في دفتر العلماء ونظموني في سلك العظماء، فاهتززت لذلك فرحاً ثم اغتممت ترحاً: فرحت من حيث ستر الله عليَّ، حتى نظر عبادُه بحسن الظنّ إليَّ، واهتممت من كون العلماء استثمنوا ذا ورم، ونفخوا في غير ذي ضرم. ثم أشار عليَّ بعض المحبين منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم. فكتبت هذه العجالة للتشبُّه

اهتمامهم بالبحوث الدينية والأدبية [1] إلى جانب ميوله للمباحث الفلسفية التي درسها أضاف لها معرفة جديدة بعد احتكاكه بعلماء فرنسيين، مدة اعتقاله بأمبواز، و اطلاعه على أفكارهم، كما أن الرسالة محاولة من الأمير عبد القادر أن يُنازل فكرا ناضجا بما رصده من أبحاث الغزالي وبن سينا و ابن عربي، مصيغا إياها بأسلوب مرتب متناسق. جاءت تسمية الأمير لهذا الكتاب تعود إلى إطلاعه على عنوان مشابه لدى شيخه محي الدين بن عربي في كتابه محاضرة الأبرار و مسامرة الأخيار، حيث سمى بابا من أبواب كتابه " تذكرة عاقل و تنبيه الغافل، فلعل هذا العنوان ظل راسخا في ذاكرة الأمير ووظفهُ للتذكير بما سبق و أن أظهره في كتابه المقراض الحاد و كأنها موسوعة فكرية تتواصل حلقاتها من خلال قلم الأمير عبد القادر.

و قدم هذا البحث في نسختين إحداهما باللغة العربية و الأخرى بالفرنسية بقلم ترجمان القتصلية في دمشق غوستاف دوقا سنة 1858(Gustave Dugat) ، وهو مستشرق فرنسي. وقد سمح له الكتاب باكتشاف جانب من شخصية الأمير، كمفكر وأديب متشبع بدينه ومنفتح على الأخر كالفلسفة اليونانية، كما عرفت الفرنسيين بمفكر عربي خاصة النخبة المثقفة وبدوره رونيه خوام (René khawam) أعاد طبعها سنة 1977، بعنوان آخر "رسالة إلى الفرنسيين (Lettre aux français)" [2]

كان من الصعوبة إيجاد النسخة الأصلية ورقيا أو ألكترونيا، لضبط دراسة الكتاب دراسة ظاهرية ومعرفة عدد صفحاته ا وأبعاد صفحاته والخط المعتمد فيه، رغم أن الكتاب تم تحقيقه حسب ما هو موضح أعلاه أكثر من تحقيق، وتم ترجمته أيضا أكثر من ترجمة، وحظي بالدراسة إلا أنها جهود لم تولي هذا الجانب الاهتمام. والنسخة المعتمدة في هذه الورقة البحثية كانت صورة بالماسح الضوئي حيث كانت تتطابق تماما مع تاريخ كتابته 1281هـ،وهي النسخة التي كتبها ابنه محمد باشا بخط مغربي وافتتحه بالسيرة مختصر عن والدة دون أن ينسب العمل إليه، ولا بالجهة التي تولت طبعها حيث جاءت رسالة الأمير في 133 صفحة [3].

قسم الأمير رسالته إلى الفرنسيين في ثلاث أبواب بعد مقدمة وذيل أبوابها بخاتمة،

– مقدمة عرض فيه مضمون رسالته، وضع فيها القارئ على مبينة مجملا ما سيفصل فيه وهو أسلوب وطريقة معاصريه، تفادي الحواشي والمختصرات. وهو نمط الكتابة الذي سيعرف تطورا مع مطلع القرن العشرين عند عرب.

ومن عناوين الأبواب

–في العلم والجهل

بالعلماء الأعلام، ورميت سهمي بين السهام، وسمَّيت هذه الرسالة *ذكرى العاقل وتنبيه الغافل*. عبد القادر الجزائري: **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، ص28.

[1] عبد القادر شرشار: «شخصية الأمير من منظور الآخر»، ترجمة كتاب "عبد القادر لقوستاف دوقا أنموذجا"، **مجلة إنسانيات**، ع.19- 20، مركز البحوث الأنثروبلوجية والاجتماعية، الجزائر، ص.20.

[2] .عمار طالبي، **الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، دار القصبة، 2005، الجزائر، مقدمة ص5-6.

[3] .محمد باشا، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، د.ط، د.ت،

-اثبات العلم الشرعي

-فضل الكتابة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وكل باب من الأبواب فصل فيه في عناوين فرعية تفصيلية تناول في أكثر من مسألة. كما أعطى للخاتمة عنوانا أنهي به الكتاب.

ثالثا قراءة في كتاب ذكرى العاقل

تعتبر الكتابة العربية الفكرية في القرن التاسع عشر، بمثابة ثورة على السكونية التي اتسمت بها القرون الأخيرة للعرب والمسلمين و مواجهة الوضعية الاستعمارية التي حاولت إفراغهم من انتماءاتهم ، لذلك جاءت سياقات الكاتبات ثائرة على الواقع الموروث، وتكييفها مع مقتضيات العصر بشكل معتدل أو الغلو في الاستلهام من الغير. ولم تخرج كتابات الأمير عن هذه السياقات بما في ذلك رسالته ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. هذه الأخيرة التي عبرت عن تمازج فكري بين التشبع بمورث حضاري واحتكاك بفكر غربي.

تجاوز الأمير عبد القادر في هذا الكتاب علماء عصره وتناقضاتهم، والصراع الحاد الذي طغى على الأجواء الفكرية، وشغل بال المفكرين. ونقصد بذل كالنقاشات التي أثيرت حول القديم والحديث والأصالة والمعاصرة. فاتخذ الأمير موقفا وسطا؛ حافظ خلاله على إرثه وإرث أجداده، لكن دون الانغلاق عليه، فدعا إلى التجديد واستخدام العقل في قوله: «*اعلموا أن العقل منبع العلم وأساسه ومطلعه، والعلم يجري من العقل مجرى الثمر من الشجر والنور من الشمس والرؤية من العين...*»[1]. وذم التقليد واعتبر المقلد مهلكا لنفسه وغيره: «*وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده، والأعمى لا يصلح أن يقود العميان ...وإن البهيمة تقاد أفضل من مقلد ينقاد*»[2].

وميز الأمير بين العلوم العقلية والشرعية،وهي مربط الجدلية الدائرة بين العقل والنقل والقديم والحديث والأصالة والمعاصرة في قوله: «فالعلوم التي تجل في العقل تنقسم إلى عقلية وشرعية؛ أما العقلية فينبغي بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع...أما العلوم الشرعية فهي مأخوذة عن الأنبياء، وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزابور والقرآن، وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض...فلا غنى بالعقل عن العلوم الشرعية، ولا غنى بها عن العقل. فالذي يدعو الناس إلى التقليد المحض مع عزل العقل جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور، فإياكم أن تكونوا من أحد الفريقين وكونوا جامعين بينهما، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية...»[3].ولم يقدم الأمير إحداهما عن الأخرى (العلوم الشرعية

---

[1] عبد القادر الجزائري: **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، تق، تح: ممدوح حقي، بيروت، 1966، ص.40.

[2] المصدر نفسه، ص.35.

[3] المصدر نفسه، ص.82.

والعقلية)، فالعلاقة بينهما تكاملية. فكان بذلك من رجال النهضة، الذين حملوا على عاتقهم هموم أمتهم، وواجهوا البدع والتقليد والتعصب التي نخرت المجتمع من الداخل، وتصدوا اللدخيل الأجنبي في مواجهة خارجية.

لم يكتف الأمير بالإشارة إلى مواطن العلل والتنظير لها، بل سعى إلى التغيير؛ فزاوج بين التنظير والممارسة.و كانت دولته التي أسسها وفق نظم حديثة في أجهزتها وقوانينها تضاهي الدول الغربية الحديثة، حافظ فيها على أسس الدولة الإسلامية القائمة على التوحيد والبيعة والشورى. رغم أنه لم يكن قد درس في أوربا كغيره ممن نظر للفكر التنويري كرفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي[1]. وإنما منطلقه في ذلك كان منطلقا ذاتيا نتيجة معاينته للمجتمع ومعاناته، ورصده لواقع الأمة، في أسفاره التي قادته إلى البقاع المقدسة ومصر، والأكيد أنه اطلع هناك على انجازات محمد علي، فأسس دولة جزائرية قائمة على الحداثة، قطع فيها الصلة بالمفاهيم التقليدية للدولة العربية في عصره، فكانت دولته أكثر مركزية وقوة.

اعتمد الأمير واستلهم أفكاره من مجموع قراءاته لأفكار من سبقه، والتي تعتبر مصدر من مصادر المعرفة، بما في ذلك ابن خلدون في تقسيمه للمعمرة وأثر العوامل المناخية، أثر الطبري في تاريخه عن الأنبياء، وأثر الثقافة المتأخرة حول الفلسفة الغربية. ومناقشته لأمور علمية ونظريات حديثة كسرعة انتقال الضوء ويعطي لها تفسيرات على قاعدة المقولات العشر التي سادت الفلسفة الإسلامية[2]. فأثناء حديثه عن العقل الذي اعتبره مصدرا من مصادر المعرفة أكد على غرار المتكلمين الذين يبدأون بحوثهم بالنظر وهي أيضا ما يساوي عند الغربيين نظرية المعرفة[3]

تجنب الأمير النظريات الغربية الحديثة التي تعطي تفسيرات حسابية وتجريبية في تعليل تسيير الكون ،فكان إيمانه العميق بالله تعالى وراء انقياده في عدم مناقشة العلل وارجاع الأمر كله لله تعالى، فبالنسبة إليه فإن الضوء والصوت والكهرباء والمغنطيس والحجم.....كلها لا تتنافى مع الإيمان بالله تعالى، فهو وضع للطبيعة هذه القوانين.

الأمر الذي دفع أبو القاسم سعد للقول بغلبة النقولات فيها: «*أما إنتاجه الآخر فيغلب عليه روح النّقل، فكتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل مليء بالنقل الحرفي من إحياء علوم الدين للغزالي*». بينما ذهب رابح بونار في كتابه الأمير عبد القادر حياته وأدبه بقوله: «هي قبسة فكر يحاول الأمير أن ينازل بها فكرا ناضجا بما امتصه من أبحاث الإمام

---

[1] إسماعيل زروخي: "الدولة الوطنية وأصالتها عند الأمير عبد القادر" **مجلة سيرتا**، ع.12، كلية العلوم الاجتماعية، قسنطينة، جوان 1999، ص.139، وما بعدها.

[2] ممدوح حقي، المصدر السابق، ص.10.

[3] .عمار طالبي، **المرجع السابق**، مقدمة ص6.

الغزالي وابن سينا وابن عربي وغيرهم، وقد صاغها بأسلوب واضح، وبترتيب متناسق، فكانت درة في الأدب النثري بالجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، ترفع من إنتاجنا الفكري وتسبغ عليه هالة من الجلال، وتستحق منا كل عناية والاهتمام».[1]

لم يتمكن الأمير من تجاوز في فكره بعد الأعراف البالية خاصة ما يتعلق بتعليم المرأة[2]فخرق بهذه الدعوة كل ما كان يجمع عليه أهل عصره من الفقهاء[3]في باب فضل الكتابة، حيث استشهد بنهي الشارع لتعليم البنت في معرض حديثه على أن الكتابة تعبر أفضل مما يعبر عنه الإنسان مشافهة لكن في الحقيقة إن الأدلة على ذلك كانت مستقاة من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة. فقد روى الحاكم في صحيحه من رواية محمد بن إبراهيم الشامي ثنا شعيب بن اسحاق عن هشام عن أبه عن عائشة ـن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿لاتسكنوهن الغرف ولا تعلمنهن الكتابة وعموهن الغزل﴾، وهو في الأصل خبر ضعيف كذبه الدار قطني ورواه ابن عباس مرفوعا ﴿**لا تعلموا نساءكم الكتابة ولاتسكنوهن العلالي**﴾. وقد ساقت هذه الأحاديث الضعيفة الأمة الغافلة إلى عدم الاهتمام بتعليم المرأة قرونا. فلم تأثر فيه أيضا الحضارة الأروبية التي كان قد زارها واطلع هناك على مدى التطور الذي أضحت عليه، وتجاوزت هذه الأفكار الرجعية، وقبل هذا ما نصت عليه الشريعة الغراء في التميز بين الذكر والأنثى في التعليم سواء آيات قرآنية أو أحاديث نبوية.

وفي الأخير يمكننا القول أن كتابات الأمير عبد القادر مثلت مرحلة مضيئة من حياة الرجل، فبطولاته بالسف لا تقل عن قلمه، فكانت كتابته الفكرية والروحية حلقة من حلاقات نضاله المتواصل.

-أعطت بطولات الأمير في الجزائر مكانة خاصة في الأفاق، فحظي بالتقدير و التبجيل من ملوك الأرض ونخبها، كما أنه أثار اهتمام أكثر الأخريين في معرفته، خاصة الفرنسيين منهم؛ حيث كانوا يتلهفون لترجمة أعماله وهو بين أيديهم وتحت رقابتهم.

-ميز الأمير أين يضع سيف وأين يخط بقلمه، فكان فارسا بالسيف والقلم، فهم حسب سعد الله: سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وسطر بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية.

- عرفت كتاباته بترابط أفكاره ومفاهيمه ، وأثبت من خلالها مدى اطلاعه على ديانات وفلسفات الأخر وناقشهم

---

[1]عبد القادر شرشار: «شخصية الأمير من منظور الآخر»، ترجمة كتاب "عبد القادر لقوستاف دوقا أنموذجا"، **مجلة إنسانيات**، ع.19- 20، مركز البحوث الأنثروبلوجية والاجتماعية، الجزائر، ص.20.

[2]المصدر نفسه، ص.25.

[3]الأمير عبد القادر: **ذكرى الغافل**، ص.86.

في فكرهم ودينهم مناقشة المطلع العارف.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

-عبر الأمير عبد القادر في كتاباته عن رقي حضاري، كان منبعه الأول الدين والحضارة الإسلامية.

- كان أسلوب الأمير واضح بين، يختلف عن كتابات من سبقوه، بعدة عن التكلف اللفظي من حيث السجع الموشح بالبدعيات فجاء مباشرا بلغة سليمة.خاطب بها الغرب. وهو يمثل بداية جديدة في الكتابة العربية التي ستعرف مع مطلع القرن العشرين تغيرا كبيرا.

- **قائمة المصادر والمراجع**

- عبد الرحمان بن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر.
- الأمير عبد القادر، **ديوان الأمير عبد القادر**، شرح وتح.محمود حقي، دار اليقظة.
- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره**، تر. أبو القاسم سعد الله، دار الوعي، الجزائر.
- هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، تر. أبو القاسم سعد الله، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- الأمير عبد القادر الجزائري، **مذكرات الأمير عبد القادر**، تحق. محمد صغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح الجون، ط3 ،الجزائر، دار الأمة، 1998 .
- الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج.1 ط1 ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، ، 1996.
- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.5، دار الغرب الإسلامي، ج.5، بيروت، ط1، 1998.
- حسين عمر حمادة، **الماسونية والماسونيون في الوطن العربي**، دار الوثائق، دمشق.
- رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده**، 1.مج، ط.2، دار الفضيلة، القاهرة، 1427هـ/2006م.
- محمد بن عبد القادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (سيرته القلمية)**، ج.2، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش ، الاسكندرية ، الجزائر..
- نصر الدين سعيدوني، **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة ماجد الحكواتي، 2000 .
- عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج4، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
- عبد القادر الجزائري ، **الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، تح، عمار طالبي، دار القصبة، 2005، الجزائر.
- .محمد باشا، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، د.ط، د.ت،
- عبد القادر الجزائري: **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، تق، تح: ممدوح حقي، بيروت، 1966.
- عبد القادر.بن حرفي، جوانب من شخصية الأمير من خلال مؤلفاته الادبية، **مجلة أمال**، ع.8، جويلية 1970.

- بقبق الزهراء، **الأمير عبد القادر في الأسر (1849-1852)**، رسالة ماجستير، جامعة وهران السانية، 2009، ص146.
- عبد الجليل التميمي،" الأمير عبد القادر في دمشق (1855-1860)، **المجلة التاريخية المغربية**، ع 15-16، تونس، 1979..

عبد القادر شرشار: «شخصية الأمير من منظور الآخر»، ترجمة كتاب "عبد القادر لقوستاف دوقا أنموذجا"، **مجلة إنسانيات**، ع.19- 20، مركز البحوث الأنثروبلوجية والاجتماعية، الجزائر.

- إسماعيل زروخي: "الدولة الوطنية وأصالتها عند الأمير عبد القادر" **مجلة سيرتا**، ع.12، كلية العلوم الاجتماعية، قسنطينة، جوان 1999.
- Xavier Yacono, Abdelkader,franc-maçon, in Humanisme,numéro spécial, Histoire Maçonnique, n57, mai-jiun 1966.